ولا مانع أن يشمل ذكر الله فى الآية هذه المعانى كلها ، فالمؤمنون قلوبهم مطمئنة بهذا كلّه ، فلا يعتريها ريب ، ولا يطرأ عليها قلق ، ولكنها ساكنة مطمئنة ، والطمأنينة معناها السكون ، وأصلها فى الحسيات ، كاطمئنان الأرض ، ثم نقل إلى المعنويات .

السعادة الحقة فى طمأنينة القلوب بالإيمان :

﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنَ الْقُلُوبُ ﴾ ألا أداة استفتاح لتأكيد الجملة والتنبيه على مضمونها ، وعلماء البلاغة يقولون : قدّم ﴿ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ للدلالة على أنه ليس بذكر غيره بل بذكر الله وحده ، والإنسان إذا جمع ما شاء من مال ، وارتقى ما شاء من مناصب ، وأنجب ما شاء من بنين ،وهيأ ما شاء من أنعام وحرث من زينة الحياة الدنيا ، فلن يمنحه هذا كله طمأنينة القلب ، وأصحاب الملايين والبلايين كُثر ، ولكنهم قلقون . وهذا ما نراه عند كثير من المرتابين والشكّاك والملاحدة ، إنهم لا يشعرون بطمأنينة القلوب مع ما هم فيه من مال وبنين ونعمة كانوا فيها فاكهين ، فكثيراً ما تكون الأموال والأولاد أداة تعذيب لهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٥٥] .

فالمسألة إذن ليست مسألة مال ولا أولاد ، ولا أنعام ولا حرث ، ولا قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، فالسعادة إنما تنبع من الطمأنينة ، والطمأنينة تنبع من الداخل لا من الخارج ، من القلب ، ولذا نجد أهل الحضارة المادية المعاصرة الذين استطاعوا أن يحلقوا فى الهواء كالطيور ، وأن يغوصوا فى البحار كالحيتان ، وأن يمشوا فوق الأرض كالشياطين ، لم يسعدوا في حياتهم الدنيا ، ومن هنا نراهم يسمون الحضارة المعاصرة (حضارة القلق) ويسمون عصرنا هذا (عصر القلق) ، ولذلك تكثر الأمراض النفسية ، والعيادات النفسية فى أمريكا تعد بالآلاف بل بعشرات الآلاف ، والناس يشكون من العقد ومن الاضطرابات العصبية والنفسية ومن الضيق بالحياة ، فالحياة لا طعم لها ولا معنى عندهم ، ولم تسعدهم معطيات الحضارة المادية الهائلة التى بلغت بأحدهم أن يضع يده تحت صنبور المياه فينزل الماء تلقائيًا دون أن يحرك له ساكنًا ، وقد كتب صحفى

ذات مرة عن أهل السويد والنرويج والدانمارك تلك البلاد ذات الدخل المرتفع جداً للأفراد ، إلى جانب الضمانات الهائلة فى حالة المرض ، وفى حالة الشيخوخة ، وفى حالة الولادة ، وفى حالة الإصابة فى العمل ، وفي حالات العجز والتعطل الإجبارى ، أنهم ليسوا سعداء وأن من اليسير على أحدهم أن يلقى بنفسه من الطوابق العليا ، أو أن يشرب السمّ ، أو أن يضرب نفسه بالرصاص ، فهذه البلاد ذات نسبة عالية – بل من أعلى النسب – فى حالات الانتحار ؛ وما ذلك إلا لأنهم محرومون من الطمأنينة ، فالطمأنينة إنما تأتى بذكر الله ، وهؤلاء لا يذكرون الله ، بل يعيشون فى بعد عن الله ، كما يقول أحد أبناء هذه الحضارة « ليوبولد فايس » الذى اهتدى إلى الإسلام وسمى نفسه محمد أسد ، يقول فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) : « إن الحضارة الحالية وإن لم تجحد الله البتة – يعنى جحوداً صريحاً قاطعاً – لا تجد لله معنى ولا فائدة فى نظامها الفكرى الحالى »(١) .

وقد كنت فى إيطاليا فى شهر ديسمبر الماضى – ١٩٩٢ م – فى مؤتمر من مؤتمرات المسلمين التى تعقد أثناء ما يسمونه (الكريسماس) واحتفالات المسيحيين به ، ويعقدها الشباب الإسلامى هناك ، وحدثنا أحد الإخوة فى ميلانو من الذين أسلموا فى إيطاليا عن كيفية اهتدائه للإسلام فقال : إنه وجد بائعاً مغربياً يتجول ليبيع السلع فسأله وهو يرتعش من البرد : ما الذى أوقفك فى هذا البرد ؟ فقال الرجل : أبحث عن رزقى ، فسأله : وهل تكسب شيئاً ؟ قال الرجل : أكسب ولله الحمد كذا وكذا ليرة ، فآخذ بعضها لنفسى وأرسل بعضها الآخر لأهلى ، فسأل : ومن هذا المبلغ الصغير ترسل إلى أهلك ؟ قال الرجل : نعم فالله تعالى أوصانا بالوالدين والأرحام ، ورضى الوالدين من رضى الله ، وغضب الوالدين من غضب الله ، فسأل : وهل أنت راض بهذا ، قال الرجل : الحمد لله ، فما يأتى به الله خير ، فاستغرب السائل أحوال الرجل فى هذا البرد

---

(١) انظر الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد الطبعة العربية ترجمة الدكتور عمر فروخ ص ٣٩ طبعة دار العلم للملايين .

OBEIKAN.COM

الشديد وهو يسعى ويرضى . وعندئذ سأل مرة أخرى : ومن الذى علّمك هذا ؟ فقال الرجل : تعلمت هذا من دينى ، أن نرضى بما قسم الله لنا،فسأل: وكيف أعرف دينكم ؟ فقال الرجل : أدلك على المسجد ، ويقول السائل : إن هذا الرجل ما دخل مسجداً فى حياته قط ، فدخل معى لأول مرة ، فأسلم السائل ، واهتدى هذا الرجل ، وصلح حاله ، وماذاك إلا بالرضى والطمأنينة وحمد الله وذكره .

﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ هذه السعادة التى فى ذكر الله والطمأنينة عبّر عنها بعض الصالحين قديماً فقال – على شظف عيشه – إننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف ، تلك هى السعادة سعادة الروح والقلب ، من عرفها وعاشها تمتع بها ، ومن لم يعرف قيمتها من الملوك والحكّام وغيرهم لم يجد متعتها ، ولو أنهم عرفوها لقاتلوا عليها بالسيوف .

اقتران الإيمان بالعمل فى القرآن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ الذين آمنوا يثيبهم الله فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فأما ثوابهم فى الدنيا فهو هذه الطمأنينة التى هى سرّ الحياة الطيبة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] وأما ثوابهم فى الآخرة فهو ما عبّرت عنه تلك الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ و ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تتضمن العمل ، والقرآن يذكر العمل أحياناً مقروناً بالإيمان ، وأحياناً أخرى لا يذكره ، فإذا لم يذكره فهو متضمن فى حقيقة الإيمان ، وإذا ذكره فهو يدلّ على أن الإيمان لابد معه من عمل ، كما جاء عن بعض السلف « ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلّى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وهذا ليس حديثاً ،ولكنه من كلام بعض السلف ، وهو كلام صحيح ، فلا إيمان بغير عمل .

عمل الصالحات ما هو ؟ :

ولكن أى عمل ؟ العمل الذى يثمره الإيمـــان الحقّ هو ما عبّر عنه القرآن (بعمل الصالحات) وهذه كلمة قرآنية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

تكررت فى القرآن بضعاً وخمسين مرة ، و (الصالحات) وصف للأعمال ، فهناك أعمال فاسدات وهناك أعمال صالحات ، والصالحات هى ما يصلح به الفرد وتصلح به المجتمعات ، وتصلح بها الحياة ، يستوى فى ذلك كون هذه الأعمال دينية محضة ، مثل : إقامة الشعائر من الصلاة والصيام والحج والعمرة والتلاوة والذكر ، وكونها دنيوية فهى تدخل فى الصالحات أيضاً ؛ لأن عمارة الأرض من العمل الصالح ، أن يزرع المسلم الزرع ، ويغرس الغرس ،ويقيم الصنعة ، وقد قال النبى ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » (١) وقال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » (٢) فقد كان داود عليه السلام -حداداً يعمل فى صناعة الدّروع : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ:١٠] ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾[الأنبياء : ٨٠] ، ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سبأ : ١١] ، كان داود يعمل ويتقن عمله ، ويذكر الله سبحانه وتعالى ، فتتجاوب معه الطبيعة من حوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٩] .

فعمل الصالحات إذن ليس العمل الدينى فقط ، ولكن العمل الدنيوى أيضاً . وهذا مما جاء به الإسلام ، فكل ما يقدم نفعاً للناس وخدمة لهم ، ولو كان إماطة الأذى عن الطريق ، ولو كان كلمة طيبة ، ولو كانت بسمة فى وجه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب (وغيره) باب رحمة الناس والبهائم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ ولفظه : « ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة » ، ورواه مسلم فى المساقاة ص ٧ : ١٠ ، ١٢ والترمذى فى الأحكام ص ٤٠ والدارمى فى البيوع ص ٦٧ ، والإمام أحمد بن حنبل فى غير موضع من مسنده .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عند كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » . .

أخيك المسلم ، هو من الصالحات ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة (١) .

وحتى العمل للمعاش إذا قصدت به وجه الله وصحّت نيّتك ، كأن تريد أن تعفّ نفسك ، وأن تغنى أهلك ، وأن تنفع مجتمعك ، وأن تقوى أمتك ، يصبح بذلك عبادة .

بل أكثر من ذلك أن بعض الأعمال الغريزية إذا عملها الإنسان وصحت فيها نيّته ، يمكن أن تكون عبادة أو عملاً صالحًا يتقرب به إلى الله عزّ وجلّ (٢) كما جاء فى الحديث الصحيح : « وفى بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر ، أتحتسبون الشرّ ولا تحتسبون الخير ؟! » (٣) .

ومجال الصالحات فى الإسلام مجال رحب فسيح يستطيع الإنسان أن يستكثر منه ، وأن يضيف إلى رصيده الكثير الكثير فى كل يوم وفى كل ساعة ، فهو يشمل الصلاح الدينى والصلاح الدنيوى ، والأعمال الصالحة الدينية لها شرطان :

الشرط الأول : أن يتوافر فيها الإخلاص لله عزّ وجلّ .

---

(١) إشارة إلى أحاديث كثيرة منها حديث البخارى فى المظالم والغضب باب إماطة الأذى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « يميط الأذى عن الطريق صدقة » ، ومنها حديث أحمد ومسلم والبخارى فى الأدب باب طيب الكلام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « الكلمة الطيبة صدقة » ومنها أيضًا حديث الترمذى فى البر ص ٣٦ : « تبسّمك فى وجه أخيك لك صدقة » .

(٢) انظر : كتاب (العبادة فى الإسلام) للشيخ القرضاوى ، فصل : مجالات العبادة فى الإسلام نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه وهو حديث طويل تتمته : « وفى بضع أحدكم صدقة .. إلى آخر الحديث » ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه كتاب التطوع ص ١٢ والأدب ص ١٦٠ .

الشرط الثانى : أن تقع على منهج الشرع ، على سنة رسول الله ﷺ ، ولذلك حينما سئل أبو علىّ الفضيل بن عياض – رحمه الله – عن قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : ٧ ، الملك : ٢] ، ما أحسن العمل ؟ قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه ، قيل : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن الله تعالى لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا ، فإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، وإنما يقبل إذاكان خالصًا صوابًا ، وخلوصه أن يكون لله ، وصوابه أن يكون على السّنّة ، أى على منهج الشرع .

وكذلك الأعمال الدنيوية الصالحة يطلب فيها أمران :

الأول : أن تكون على منهج الشرع بحيث لا تكون مخالفة لأمر الله ، فلا تكون حرامًا ولا تتعدى حدود الله ، وما يتبع ذلك من غش وتطفيف واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل فى التجارة مثلاً وفى غيرها .

الثانى : أن تصح فيها النية ، ولو كانت النية أن يعف الإنسان نفسه عن أن يمدّ يده للغير ، وأن يساهم فى خدمة أمته ، فبهذا يصبح العمل صالحًا .

تحقيق معنى كلمة (طوبى) :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ طوبى فعلى من الطيب كزلفى وحسنى ، ومعناها الحياة المستطابة ، ولذلك جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : طوبى بمعنى فرح وقرة عين ، وجاء عن قتادة والضحاك وعكرمة وغيرهم ألفاظ مشابهة ، فبعضهم يقول : طوبى لهم أى حسنى لهم ، وبعضهم يقول : أى خير لهم ، وبعضهم يقول : غبطة لهم . وبعضهم يقول : نعمى لهم ، وغير ذلك مما قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية : إنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ، فكل مفسر يذكر نوعًا من الطيب مثل ما يقولون فى الصراط المستقيم إنه الإسلام أو القرآن أو اتباع السنة النبوية أو سنة الراشدين ، فهذا ليس اختلاف تضاد وإنما هو اختلاف تنوع .

وهناك من يقول : إن طوبى هى الجنّة أو هى من أسماء الجنة باللغة الحبشية أو هى البستان باللغة الهندية ، وهذا معناه أنها منقولة من بعض اللغات السامية

OBEIKAN.COM

أو من بعض اللغات الآرية ، ويستدلون على أن طوبى هى الجنة ببعض الأحاديث التى وردت أن طوبى هى الجنة أو شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام أو نحو ذلك (١) .

والذى أرجّحه أن طوبى هى فعلى من الطيب أى الحياة الطيبة المستطابة التى فيها الخير والسعادة وكل ما يشتهيه الإنسان ومنها الجنة ؛ لأن الحياة الطيبة إنما تكمل فى الجنة التى فيها « مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (٢) ، وهذا الترجيح مع ورود بعض الأحاديث مقطوعاً عن بعض التابعين وورود بعضها موقوفًا عن ابن عباس وأبى هريرة وورود بعضها مرفوعاً (٣) ؛ لأن الأحاديث المرفوعة لا تخلو من كلام فى سندها فبعضها فيه شهر بن حوشب ،

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رويت فى ذلك ومنها حديث الإمام أحمد فى المسند ج ٣ ص ٧١ ج ٤ ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ : « وما طوبى قال : شجرة فى الجنة » ، ومنها حديث : « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام .. » الذى رواه البخارى فى بدء الخلق ص ٨ ، وفى تفسير سورة الواقعة عند قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ، وفى الرقاق ص ٥١ ، ٦٠ ، ورواه مسلم فى الجنة ص ٦ : ٨ عن أبى هريرة والترمذى فى الجنة ١ ، وفى تفسير الواقعة ، وابن ماجة فى الزهد ص ٢٩ والدارمى وأحمد فى المسند .

(٢) إشارة إلى حديث أبى هريرة رضي الله عنه : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] الذى رواه البخارى فى غير كتاب من صحيحه مثل بدء الخلق وتفسير سورة السجدة وغيرها ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان ص ٣١١٢ وفى الجنة ٢ : ٥ عن أبى هريرة وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنهما وغير ذلك ، كما رواه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده .

(٣) الحديث المقطوع هو ما جاء عن التَّابعين موقوفًا عليهم من أقوالهم أو أفعالهم وهو غير المنقطع والحديث الموقوف هو ما يروى عن الصحابة رضى الله عنهم من أقوالهم أو أفعالهم ونحوها فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله ﷺ (وهو على أنواع يرجع إليها فى مظانّها) ، والحديث المرفوع هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ خاصة ولا يقع مطلقه علي غير ذلك نحو الموقوف على الصحابة وغيرهم ويدخل فى المرفوع ، المتصل والمنقطع والمرسل ونحوها (وهناك تفصيل يرجع إليه فى مظانّه) ... انظر مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص٢٢ ، ٢٣ ط مكتبة المتنبى القاهرة ، وانظر كذلك التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للإمام العراقى ط دار الفكر ص ٦٥ ، ٦٦ .

وبعضها فيه ابن لهيعة ، وبعضها فيه درّاج القصاص المعروف ، وعلى ذلك فهى غير ثابتة ثبوتًا يطمئن إليه القلب (١) ، ومن هنا فأنا أرى أن طوبى هى كلمة عربية وليست مستعارة من لغة أخرى ، وليست علمًا على الجنة أو شجرة فيها ، وهى مقابل (ويل) ، وقد استعملها العرب قبل الإسلام فى بعض أشعارهم كما استعملوا كلمة (ويل) التى ورد فى أحاديث بعض القصّاصين أنها (وادٍ فى جهنم) ولكن هذا لم يصح ، والذى ثبت فى الصحيحين : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام » (٢) وفسر بهذا قول الله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٣٠] ولكن هذا شىء ، وأن تكون طوبى هى تلك الشجرة شىء آخر ..

﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ حسن مآب أى حسن مرجع ومنقلب فسينقلبون إلى الخير كل الخير وإلى السعادة كل السعادة ، وإذا كان بعض الناس ينتظرون شرّ منقلب كما توعّد الله الظالمين فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] فإن هؤلاء منقلبهم إلى الخير ، ومآبهم إلى الله يتولاّهم برحمته ويكافئهم بمثوبته ويجزيهم بفضله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ﴾ [الروم : ٤٥] .

* * *

---

(١) ذكرهم أهل الحديث وعلماؤه فى الضعفاء فقال الإمام البخارى فى التاريخ الكبير ج ٥ ص ١٨٢ عن عبد الله بن لهيعة قاض مصر حدّثنا محمد ثنا الحميدى عن يحيى بن سعيد أنه كان لايراه شيئًا ، وكثر فى ابن لهيعة الكلام ، وأما دراج أبو السمح فوثقه ابن معين وتركه الدارقطنى وقال أحمد وغيره : أحاديثه مناكير . انظر المغنى فى الضعفاء للذهبى ج ١ ص ٣٢٤ ط إحياء التراث بدولة قطر ، وأما شهر بن حوشب فقد وثقه ابن معين وأحمد بن حنبل وقال النسائى وغيره : ليس بالقوى .. المغنى للذهبى ج ١ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) سبق الكلام عنه وتخريجه فى هامش فى الصفحة السابقة ، فارجع إليه .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ من قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّى لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلِ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[الرعد : ٣٠ : ٣٢] .

يقول الله تعالى مسليًّا رسوله ﷺ عن موقف الذين كفروا وعنادهم وتعنتهم فى طلب الآيات : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾كهذا الإرسال البديع الأمر الغريب الشأن ، والمفسرون أحيانًا يقولون فى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إن فيها تشبيهًا مضمنًا ،والبعض يقول : بل يقصد بها التأكيد وتثبيت ما بعدها ، وليس من الضرورى تشبيه شىء بشىء، وأنا أميل إلى الرأى الثانى ، فكأنه يقول : الأمر كذلك ﴿ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ ﴾ ولم يقل إلى أمة لتكون الأمة وعاءً للرسالة ، وليشير إلى أن الرسول ﷺ فى هذه الأمة ومنها وليس طارئًا عليها .

القرآن وحى الله :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ ليست بدعًا من الأمم وليست أول الأمم ، فقد سبقتها أمم كثيرة ، وفى القرآن : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف : ٩] أى ليس أول الرسل ، فقد سبقه رسل كثيرون ، وقد أرسلناك فى هذه الأمة لمهمة ، وهى أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، أن تقرأ عليهم القرآن ، ولم يقل القرآن ولكن قال : ﴿ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ليدل على أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ وليس لمحمد فيه إلا التلقى ،ولكن القرآن كلمات الله عزّ وجلّ التى أوحاها إلى محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء : ١٩٢ : ١٩٥] ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ ، ٤]،ولذلك قال الله عزّ وجلّ :﴿ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ

الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وهذا الذى أوحينا إليك هو الحق الذى لا ريب فيه ، كما قال تعـــالى : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [فاطر : ٣١] هو روح يُحيى ، ونور يَهدى ، روح يحيى القلوب ، ونور يَهدى العقول ، كما قال الله تعالى فى ختام سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[الشورى : ٥٢] فهذا هو الذى أوحينا إليك .

والإيحاء هو الإعلام بسرعة وخفاء ، وقد يكون عن طريق الإلهام فى اليقظة وهو نفث الروع كما فى الحديث « إن روح القدس نفث فى روعى .. » (١) ، وقد يكون عن طريق الرؤيا الصادقة فى المنام ، وقد يكون عن طريق التكليم المباشر كما كلَّم الله موسى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] وقد يكون عن طريق نزول ملك الوحى ، والقرآن الكريم كله أوحى إلى محمد ﷺ عن طريق الروح الأمين ملك الوحى ، وهو ما يسميه العلماء الوحى الجلى ، أما باقى الأنواع السابقة فتسمى الوحى الخفى .

تلاوة آيات الله من مهمة الرسول :

وتلاوة آيات الله ووحى الله على الناس من مهمات الرسول ﷺ الأولى كما قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَن تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧] وكما قال : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقال أيضا : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] فتلاوة الآيات وإبلاغ الناس رسالات الله المضمنّة فى هذه الكلمات ، كلمات الله الأخيرة للبشرية ، والتى

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه ابن حبـان فى صحيحه عن رسـول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقهاوأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » وقد ذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٤ ص ١٢١ عند تفسير الآيات الأخيرة من سورة الشورى .

فيها صلاحهم فى معاشهم وفى معادهم وتضمن لهم الحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة هى مهمة الرسول ﷺ ،وسواء أكانت هذه التلاوة لأوامر ونواهى كما قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ... ﴾[الأنعام:١٥١] وهى الوصايا العشر فى أواخر سورة الأنعام (١) ، أو كانت تلاوة لقصص الأنبياء والصالحين السابقين ، وقصص من مضى من الناس بما فيها من عبرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة : ٢٧] وكما قال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] وكما قال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[الأعراف : ١٧٥] فجميع هذا من التلاوة؛ ليعتبروا بقصص القرآن ، وليمتثلوا ما أمر الله به ، ولينتهوا عما نهى الله عنه، قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام .

كفر المشركين بالرحمن :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ والحال أنهم يكفرون بالرحمن ، قابلوا النعمة بالكفر ، نعمة الإرسال ، إرسال الرسول ،ونعمة الإنزال ، إنزال القرآن ، فخير منزّل هو القرآن ، وخير مرسل هو محمد عليه الصلاة والسلام ، ومع هذا كفروا بخير نبى أرسل وكفروا بخير كتاب أُنزل ، بل ، وكفروا بالمرسل والمنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وقد ورد اسم الرحمن فى سياق كفرهم : ﴿ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ وهذا يسميه علماء البلاغة التفاتاً ، فقد كان مقتضى السياق أن يقول : لتتلوعليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بنا ، ولكنه وضع الظاهر

---

(١) روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. ﴾ ، وقال ابن عباس هنّ أم الكتاب .. انظر ابن كثير التفسير ج ٢ ص ١٨٧ .

مكان المضمر ، واختار اسم الرحمن أى الذى وسعت كل شيء رحمته ، وغمرت كل مخلوق نعمته، فيكفرون به ، وبدل أن يقابلوا النعمة بالشكر قابلوها بالكفر والنكران ، وقابلوا الإحسان بالإساءة .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾ ماذا تصنع أمام هؤلاء الذين قابلوا نعمة الإرسال والإنزال بالجحود والكفران ؟! قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، ليتباين الموقفان ، موقف هؤلاء الكفرة ، وموقف رسول الله ﷺ ، قل هو ربى خالقى ومالكى ومتولى أمرى ، وراعى شؤونى ، ومبلغى درجات الكمال الذى يرقينى فى درجات الكمال شيئًا فشيئًا ودرجة فدرجة ، وما دام هو ربى ولا رب غيره ، فكل الأرباب من دونه زائفة ، الذين اتخذوا أربابًا من دون الله كالأنهار والجبال والشمس والقمر والكواكب والحيوانات النافعة كالبقر ، وبعض مظاهر الطبيعة ، والذين عبدوا البشر ، والذين عبدوا الحجر ، هذا كله زيف ، فليس هناك إلاَّ رب واحد ، وبالتالى فليس هناك إلا إلٰه واحد ، معبود واحد هو الله .

مقابلتهم بالتوكل على الله وحده :

وتوحيد الإلٰهية مترتب على توحيد الربوبية ، فما دام هو الرب الذى لا مالك غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار غيره ،ولا محيى ولا مميت غيره : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] إذن فلا إلٰه غيره ولا يعبد سواه : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وما دام هو الرب الذى لا إلٰه إلا هو الذى ثبتت له الربوبية وحده ، والألوهية وحده ، فلا يجوز أن يتوكّل على غيره ،ولهذا فتوكّل عليه : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ . .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وكلت أمرى إليه ،وجعلت اعتمادى كلّه عليه ، وعلماء البلاغة يقولون : إن تقديم شبه الجملة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يفيد الاختصاص أو الحصر أى عليه لا على أحد غيره ، وكيف يتوكل الإنسان على أحد غير الله ؟! أيتوكل على ضعيف مثله ؟ وفانٍ كما يفنى كل شيء ؟ وعاجز غير قادر ،

وكل الخلق ضعفاء وعاجزون ، ولذلك فلا يحسن ولا يجوز ولا يقبل ولا يتصور أن يكون التوكل إلا على الله ، وهذا هو موقف رسل الله جميعاً أمام أقوامهم حينما يتحدونهم ، فإنهم يعتصمون بالتوكل على الله كما قال نوح : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] وكما قال هود : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ،مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] وكما قال شعيب : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] وهكذا حكى الله عن الرسل جميعاً أنهم فى مواجهة أقوامهم المتعنتين يلجأون إلى الله ويلوذون بحماه سبحانه وتعالى .

وحين قالت الأقوام لرسلهم : ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] يريدون آيات وخوارق يقترحونها عليهم ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ*وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١ ، ١٢] فالتوكل هو مقام الأنبياء جميعاً ، ولهذا أمر النبى ﷺ بالتوكل على الله فى تسع آيات من القرآن الكريم : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [الأحزاب :٣ ، النساء : ٨١] ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان : ٥٨] إلى آخر ما جاء فى القرآن (١) .

وأحيانًا يأتى التوكل بصيغة أخرى كما قال تعالى : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل : ٩] أى اجعله يقوم بشؤونك ، كل أمرك إليه يدبّره كيف يشاء ، فهذا هو التوكل (٢) .

---

(١) أما بقية المواضع التسعة فهى فى (١٥٩) آل عمران ، وفى (٦١) أنفال ، وفى (١٢٣) هود ، وفى (٢١٧) شعراء ، وفى (٤٨) أحزاب .

(٢) ننصح القارىء بقراءة كتاب (التوكل) للشيخ القرضاوى ، وهو الكتاب الثالث من سلسلة (تيسير فقه السلوك) : فى الطريق إلى الله .

المتاب إلى الله وحده :

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب ﴾ وإليه متاب أى إليه رجوعى ومرجعى إليه،سواء كان هذا الرجوع حسيًّا أى مَعَادى إليه يوم القيامة ، ومصير الخلق كلهم إلى الله سبحانه وتعالى ، أو كان هذا الرجوع معنويًّا بمعنى التوبة ، فمتاب أي توبتى ورجوعى كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[محمد : ١٩] .

ولكن مم يتوب عليه الصلاة والسلام ؟ هذا مقام آخر كما قال ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » (١) أتوب إليه وأرجع لأشعر دائماً بأنى مقصّر فى حقه دائماً ، وما تتطلبه نعمه علىّ مما أعتقد أننى لم أفِ بحقّه (٢) ، ولذلك حينما قالت له عائشة رضى الله عنها : هوّن عليك يا رسول الله فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر ، قال : يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ (٣) .

وكلمة متاب تقوم مقام الإنابة فى بعض الآيات كما جاء على لسان سيدنا شعيب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود : ٨٨] ، والإمام ابن القيم يقول : الدّين نصفان ، التوكل نصف ،والإنابة نصف ، التوكل من باب الاستعانة ، والإنابة من باب العبادة ، والدّين كله عبادة واستعانة ،

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه عن الأغرّ بن يسار المزنى وكان يحدث ابن عمر عن رسول الله ﷺ وروى البخارى والترمذى وأبو داود والإمام أحمد قريباً من حديث مسلم .

(٢) للشيخ القرضاوى كتاب فريد عن (التوبة إلى الله) هو الجزء الرابع فى سلسلة فقه السلوك – فى الطريق إلى الله . ننصح بقراءته .

(٣) رواه البخارى فى التهجد ص ٦ وفى التفسير عند سورة الفتح ومسلم فى كتاب المنافقين ص ٧٩ – ٨١ ،والترمذى وابن ماجةوالنسائي والإمام أحمد ، وفى لفظ لمسلم عن عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنهم قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه قالت عائشة : يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً .

يجمعها قول الله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة : ٥]، فهذه خلاصة الدين ، التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا تعبد ولا تستعين إلا إيَّاه ، وهذان الأمـران : التوكل والإنابة أو التَّوبة يكمّل بعضها بعضًا ، وهما روح الدين ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ توكلت عليه فى كل الأمور وخصوصًا فى نُصرتى عليكم ، وإقامة حجتى ، وإعزاز دينى ، وتمكينى فى الأرض .

القرآن هو الآية العظمى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ يعقب على موقف هؤلاء المتعنتين المصرّين على اقتراح آيات غير القرآن ، الذين لم يقدروا قدر هذا القرآن ، ولم يدركوا سرّ هذا الكتاب العظيم ، فطلبوا آيات حسيّة مادية مثل أن يسيّر الجبال المحيطة بمكة فيتسع الوادى ، أو أن يقطع هذه الأرض حتى تتفجر عيونًا وأنهارًا ، فالوادى غير ذى زرع ، وهم يريدون واديًا مثل الوديان والسهول التى فى الشام والعراق ومصر وغيرها ، أو أن يحيى الموتى بواسطة القرآن ، فيحيى آباءهم وخصوصًا قصى بن كلاب ، فقد كان من زعماء القوم ومن عقلائهم فيسألونه عما بعث به محمد : أحق هو ؟ وهذا ليس من شأن القرآن ولا هو من شأن محمد ﷺ : أن يحدث هذه التغييرات فى الكون ، ولكنهما – محمداً والقرآن – يحدثان تغييرات أخرى لا فى عالم المادة ، بل فى عالم النفوس والقلوب والأفكار .

فلو أن قرآنًا – كتابًا من الكتب – أحدث هذه التغييرات لكان هذا القرآن وجواب الشرط هنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ .. إلخ ﴾ تقديره : لكان هذا القرآن وقرآنًا هنا بمعنى الكتاب المقروء ، فلو كان كتاب من الكتب يحدث مثل هذه التأثيرات وتصحبه مثل هذه الآيات ، لكان هذا القرآن ؛ إذ هو أعظم كتب الله ؛ ولأن فيه من الخصائص ما ليس فى كتاب آخر ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [الحشر : ٢١] ولكن جرت سنة الله على أن الكتب ليس لها مثل هذا التأثير .

والقرآن له تأثير غير هذا ، إنه يؤثر فى العقول ، ويؤثر فى القلوب ، ويؤثر فى الأنفس ، وينشىء الإنسان الذى يسير الجبال ، ويفجر الأرض أنهارًا ويغير

OBEIKAN.COM

وجه الحياة وهذا ما فعله القرآن الكريم ، فقد أحدث زلزالاً فى أمة العرب ، فغير ما بأنفسها وجعل الصحابة هم خير أمة أخرجت للناس ،وجعلهم الأمة الوسط وأحيا بهم موات العقول والقلوب ، فأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور وأنشأوا حضارة العلم والإيمان ، وأقاموا دولة العدل والإحسان ، فهذه هى مهمة القرآن ، وليست مهمته تسيير الجبال أو تقطيع الأرض ، أو إحياء الموتى .

وهناك رأى جدير بالذكر ، فالرأى الذى ذكرناه من أن تلك الأشياء التى طلبوها لو فعلت بواسطة قرآن لكان هذا القرآن ، وهذا الرأى مبنى على تعظيم شأن القرآن الكريم ، أما الرأى الآخر فيقوم على التيئيس من أمر هؤلاء الناس ، وأن هذا لو حدث وسيّرت الجبال وقطّعت الأرض وكلّم الموتى لما آمنوا ، ولما دخل قلوبهم نور الإيمان ويكون هذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١] .

والرأى الأول هو الأرجح والأقرب ؛ لأن السورة تدورحول محور القرآن من أول آية ﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ويدور الكلام حول القرآن ، وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ لبيان من يعلم أن ما أنزل إلى محمد من ربه الحق ليس كمن هو أعمى ، وصفات الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق وصفات خصومهم وأضدادهم ، فالسورة تدور حول هذا المحور ، ولذلك فالرأى الأول هو الرأى الأوجب والأقرب .

﴿ بَلِ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ إضراب عن اقتراحاتهم المتعنتة أن تحدث هذه الأشياء بواسطة القرآن ، فليس الأمر بيد محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الأمر كله لله كما قالت الرسل : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] وليس من شأن محمد أن يجيبكم على ما تطلبونه وتقترحونه ، ولكن هذا شأن صاحب الخلق والأمر ، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

معنى (أفلم ييأس الذين آمنوا) :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ هنا أراد

الله سبحانه وتعالى أن يقول للمؤمنين : إن هؤلاء المعاندين لا خير فيهم ولا أمل بهم ، فهم لا يقتنعون بشيء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ*وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[يونس:٩٦ ، ٩٧] لذلك يجب أن تيأسوا منهم ، وأن تنفضوا أيديكم من إيمانهم ، فلن يؤمنوا ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة :٧] ٠

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء المعاندين المصّرين على الجحود والعناد، أفلم ييأسوا من إيمانهم ؛ لعلمهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، وقوله : ﴿ أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره « علمًا أن لو يشاء الله » ، وبعض المفسرين يرى أن قوله ﴿ أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللهُ ﴾ متعلق بآمنوا ، والتقدير ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهم يعلمون أن الله قد سبق قضاؤه وقدره حينما خلق هذا النوع المختار من عباده الذى لا يشبه الملائكة ، بل هو يختار لنفسه ويخط طريقه بما شاء له الله ، فقد أعطاه الإرادة والاختيار والكسب ، وهداه النجدين ، وألهم نفسه فجورها وتقواها : ﴿ قَد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ ، ١٠] ، وإذن فالذين يؤمنون أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، يعلمون أنه لن يهدى الناس جميعًا : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٦] فمشيئته مرتبطة بحكمته ، وحكمته ارتضت أن ينوع فى خلقه ، ومن أنواع خلقه هذا النوع المريد المختار ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص : ٦٨] ٠

وهناك رأى للإمام أبى حيّان يقول : « أفلم ييأس الذين آمنوا » جملة منتهية ، أى ييأسوا من إيمان هؤلاء ، ويريحوا أنفسهم من الطمع فى إيمانهم ،ولا يتعبوا أنفسهم فى التطلع إلى هذا الأمر ، وقد كان هذا الأمر يتعب المؤمنين ويتعب الرسول ﷺ حتى قال الله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] تقتل نفسك من أجلهم ؟ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] أسفًا عليهم وحزنًا عليهم ،وقوله : ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وقع جوابًا لقسم – ولا

يزال الرأى لأبى حيَّان – أى أقسم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، وأنّ هنا دالة على قسم ، واستدل على ذلك ببعض الشعر العربى .

وهناك من يقول بأن ييأس هنا بمعنى يعلم ويتبين فيكون المعنى أفلم يعلم الذين آمنوا ويتبينوا ، وبعضهم أكد هذا وقال : إنها الحقيقة ، فييأس لغة قوم من اليمن .

وبعضهم قال : هذا مجاز ، لأن اليأس مسبب عن العلم ، فأطلق اليأس على العلم من باب المجاز ، وأنا أرى ألاّ داعى لهذه التكلفات ، وسواء قدرنا محذوفًا أم لم نقدر ، فالحقيقة أن هداية الناس بمشيئة الله عَزَّ وجلّ ، وأن الله لم يشأ هداية الناس جميعًا كما قال عزّ وجـــلّ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل : ٩] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود:١١٨، ١١٩] .

إصابة الكافرين بصنع أيديهم :

﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ ﴾ وكأن المؤمنين قالوا : وإذا يئسنا من إيمان هؤلاء فسيظلون يناوشوننا ويؤذوننا ويتعبوننا ، فقال الله عزّ وجلّ : ولكن قوارعى لهم بالمرصاد ولن تتركهم بسبب كفرهم وسوء أعمالهم،والباء هنا ﴿ بِمَا صَنَعُوا ﴾ للسببية ، والصنع هو العمل والكسب ، ولكن لا يقال عن العمل إنه صنع إلا إذا تمرّس عليه الإنسان وتدرّب وداوم عليه ، حتى يقال : إنه صانع أو صاحب صنعة .

وقد تحدث بعض المعاصرين ذات مرة عما يصيب الغربيين الذين يصنعون الأسلحة الفتاكة فقال : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ فجعل ﴿ بِمَا صَنَعُوا ﴾ تعنى الصناعة الحديثة وهذا تكلّف فى الحقيقة ، كما جعل الباء للاستعانة وليست للسببية ، ولكن المتبادر من الكلام أن الباء للسببية ومثلها فى القرآن كثير ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤ ، والنحل : ١١٢] .

﴿ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ داهية دهياء تنزل بهم ، فتأخذهم وتهلكهم أو تعذبهم ، والقرع ضرب شيء بشيء ، وسميت الداهية الشديدة قارعة ، كأنها شيء يدقهم دقًّا والقيامة تسمى القارعة ﴿ القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ [القارعة : ١ : ٣] ويمكن أن تكون القارعة التى تصيب الذين كفروا بما صنعوا مصيبة من المصائب كالقحط أو المجاعة أو الأمراض أو أنواع من البلاء .

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ إذا لم تنزل بهم مباشرة تحل قريبًا من دارهم فيتطاول إليهم شررها ، وهذه عملية تهويل كأنه يقول : انظروا فالقارعة قريب منكم ،وبهذا تكون إنذارًا لهم حتى يأتى وعد الله .

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ إما بالموت وانتهاء أجلهم ، وإما بقيام القيامة ، فيأخذوا جزاءهم ، وإما أن يكون وعد الله هو نصر الإسلام والتمكين له فى الأرض كفتح مكة ونحو ذلك فدوام الحال من المحال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ لا يخلف الله وعده ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف : ٩٨]، لأن الذى يعد فيخلف إمَّا أن يكون عاجزًا عن تحقيق ما وعد ، وإمَّا أنه يجهل ما سيحدث غدًا ، وإما أنه لا ينوى أن يفى من أول الأمر فهذا كله نقص ، والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص فإنه لا يعجز ولا يجهل ولا يكذب ، ولا يتصور عليه أن يخلف وعده ، والميعاد أى الوعد ، وهو مفعال من الوعد والميثاق .

الله تعالى يمهل ولا يهمل :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ لست أول رسول إذن تقترح عليه الآيات من باب الاستهزاء ، كما قيل لبعض الرسل من قبلك : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠ ، هود : ٣٢ ، الأحقاف : ٢٢] ، والتنكير فى قوله : ﴿ بِرُسُلٍ ﴾ كما يقول النحويون : للتكثير أى برسل كثير ، بل كل رسول تعرض

للاستهزاء حتى قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزخرف : ٧] وقال : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا به يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] فهم يستهزئون بالرسول وبالنبى على حد سواء ، منذ عهد نوح عليه السلام حينما كان يصنع الفلك ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْه مَلأٌ مِّن قَوْمه سَخِرُوا منْهُ ، قَالَ إِن تَسْخَرُوا منَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ منكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] ويستهزئون أيضاً بما جاء به الرسل ويقولون : هاتوا العذاب ونحو هذا ، ولذا فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا منْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] وهذا يتكرر فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمهلتهم ، وأعطيتهم ملاوة من الزمان ، ومنه الملوان الليل والنهار ، وهم يظنون الإمهال – أحياناً – لوناً من الإهمال ، والله يمهل ولا يهمل،إنه يملى لهم يعطيهم مهلة ، فرصة ؛ ليراجعوا أنفسهم لعلهم يهتدون،أو يثوبون إلى رشدهم،ويعودون إلى الحق الذى نفروا منه، فتكون فرصة لاهتداء من قدّر الله هدايته،ولتقوم عليهم الحجة أكمل قيام، وينقطع عنهم كل عذر أو تعلة ،وبعد ذلك يكون الاستدراج الإلهى الذى يكون بعده الأخذ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٤، ٤٥] .

والإملاء يكون أحياناً بأن يفسح لهم ويوسع عليهم ، كما قال الله تعالى فى شأن قوم من الأقوام : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أمليت للذين كفروا الذين استهزأوا بالرسل ، وعلى ذلك يكون الاستهزاء بالأنبياء وبما جاءوا به كفراً .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فكيف كان أخذى ، وكيف كان عقابى ؟ والله تعالى قد حدثنا عن أخذه لهؤلاء حينما قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٤١ ، ٤٢] وحينما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] ، ومن هنا كان تعجيب الله لرسوله ﷺ « فكيف كان عقاب » أى نوع هو من العقاب ، إنه عقاب أصبح حديث الأجيال يتحدث به التاريخ جيلاً بعد جيل ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] .

هذا هو موقف ومصير أولئك الذين لم يكفهم ما أنزل الله تبارك وتعالى من القرآن ، وأرادوا قرآنًا تسيّر به الجبال ، أو تقطّع به الأرض ، أو يكلّم به الموتى ، ولو فعل هذا بقرآن لكان هذا القرآن .

* * *

OBEIKAN.COM

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ ، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَّهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد : ٣٣ : ٣٥] .

معركة القرآن الأولى مع الشرك :

من يقرأ القرآن الكريم يتبين له بجلاء أن معركته الأولى وقضيته الأولى هى المعركة مع الشرك ،وهى قضية التوحيد ، وهى قضية النبوات جميعها : أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وأن تبطل عبادة أولئك المزيفين من الأرباب والآلهة المدّعَين مع الله ، أو من دون الله عزّ وجلّ ، ولم يعن القرآن بإقامة الأدلة على وجود الله عزَّ وجلَّ فوجوده فطرة مركوزة فى النفس البشرية ، والملاحدة المنكرون لوجود الله الجاحدون له قلّة لا ورن لها فى التاريخ كلّه ، وهم بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها ، والقاعدة هى الإيمان بوجود أعلى ، بروح علوية مسيطرة ، الإيمان بوجود هذه القوة فوق الأكوان وفوق قدرة الإنسان ، التي يتجه إليها الإنسان طالبًا النفع ، أو طالبًا دفع الضرّ أورفعه عنه ، وخصوصًا عند الشدائد والكربات ، فهذه هى الفطرة ، ولهذا كانت قضية القرآن وقضية الأنبياء جميعًا : الدعوة إلي توحيد الله عزّ وجلّ وإبطال الشرك ، فالقرآن عامة ، والقرآن المكّى خاصة معنى بهذه القضية .

وقد سبق فى هذه السورة مناقشة أولئك الذين يدعون من دون الله مالا يستجيب لهم بشىء : ﴿ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلاَلٍ ﴾ ، وسبق أيضًا مناقشتهم : من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، إلى آخر ما سبق فى القسم الأول من هذه السورة المكية الكريمة .

ثم عاد القرآن إلى هذه القضية وعادت السورة أيضًا إلى تلك القضية الكبيرة الخطيرة ، فقد جنى الشرك وجنت الوثنية على البشرية جناية عظيمة

حيث انعكست الحقائق ، وقلبت الأمور ، فأصبح الإنسان المكرم الذى سخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه يعبد ما هو مسخر له من أشياء يفترض أنها فى خدمة الإنسان ، وهذا هو منتهى التزوير للحقيقة من ناحية ، ومنتهى الانحطاط بالإنسان من ناحية أخرى ، والقرآن يقول فى هذا : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠ ، ٣١] فهو انحطاط من ناحية ، وقول الزّور من ناحية أخرى ، ومن هنا جاءت هذه المناقشات مع هؤلاء الناس الذين فقدوا عقولهم ، فتنزل القرآن معهم يرخى لهم العنان ، ويناقشهم فى البدهيات ، ولكن لأن الشرك يغطى على العقول ، والكفر ستر وتغطية للعقول عن الحقيقة أصلاً ، فقد بدأ يناقشهم :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعجّبهم بهذا الاستفهام الإنكارى ، كيف تتصورون أن يكون الربّ العظيم ، الربّ الأعلى ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [الأعلى : ٢ :٥] ، القائم على كل نفس بما كسبت قيام علم ورقابة وهيمنة ، فهو قائم على كل النفوس يراقبها ، يعلم سرّها ونجواها : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[النحل:١٩ ، التغابن ٤]، ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾[هود: ٦] ، هذا الإلٰه الرقيب المسيطر العليم بكل شىء ، يهيمن على كل نفس بما كسبت ، ويقوم عليها بما كسبت ، ويعلم ماذا كسبت من خير أو شرّ ، من هدى أو ضلال، من طاعة أو معصية ، يعلم ذلك ويجازى عليه فى الدنيا وفى الآخرة .

فهل يقارن هذا الإلٰه بآلهتكم التى أشركتموها معه ؟ ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والخبر هنا كما يقول المفسرون : محذوف ، والمعنى أهذا كمن لا يقوم على أى نفس ولا يعلم شيئًا عنها ؟! ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ، ولا حياة ولا نشوراً ؟! كيف تسوّون الله بهذه الآلهة وهذه الأصنام؟!! .

وحذف الخبر له نظائر فى القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّه ﴾ [الزمر : ٢٢] أى كمن ليس كذلك ؟ وقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ مَمن قَبْله كتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود : ١٧] كمن ليس كذلك ، والخبر يحذف أحيانًا لدلالة السياق عليه كما يقول ابن مالك فى ألفيتّه : « وحذف ما يعلم جائز » فحذف المعلوم جائز خصوصًا فى كتاب يعتمد الإعجاز والإيجاز .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وكلمة كسبت هنا بمعنى عملت ، سواء كان هذا العمل مما يحبه الله ويرضاه أم كان مما يسخطه ويكرهه ، وكلمة (كسبت) فى القرآن تدل على كسب الخير أحيانًا مثل ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] أى لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر، لها ما كسبت من طاعة وعليها ما اكتسبت من معصية ، والفرق بين كسبت واكتسبت : أن اكتسبت فيها نوع من المبالغة ، فمن قواعد اللغة العربية أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ،ومن ذلك جهد واجتهد فالاجتهاد أشدّ من الجهد ، وخطف واختطف وحطب واحتطب وهكذا ، ولذلك نرى أن فى الخير يجازى الإنسان عما يعمله بأدنى جهد ، وفى الشرّ لا يكتب عليه إلا ما يجتهد فيه ويعانى ، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى أن يكتب الأدنى فى الخير حتى لمجرد النيّة ، ولا يكتب فى الشرّ إلا ما كان فيه معاناة وتعب ، كما تدل كلمة كسبت على كسب الشرّ أحيانًا أخرى مثل ﴿ بَلَى ، مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ به خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٨١] ومثل ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسه ﴾ [النساء : ١١١] ، والسياق هو الذى يدل على المعنى المراد، وقد يكون الكسب للخير وللشر فيشمل الأمرين مثل ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٣٤ ، ١٤١] ومثل ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] ومثل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

الذين جعلوهم لله شركاء :

﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ ﴾ هذا دليل على الخبر المحذوف ، أن هذا القائم الإله

OBEIKAN.COM

العظيم ، الخالق العظيم ، تشبهونه وتسوونه بهؤلاء الشركاء ؟ ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] هكذا يعترفون يوم القيامة .

والشراكة تقتضى قدراً من الخلطة والمساواة ، والشريك لابد أن يساوى أو يقارب شريكه . وقد ذكروا أنواعاً من الشركات مثل : شركة العنان وهى شركة فى المال ، وإن كان المال ليس متساوياً ، ومثل : شركة الوجوه وهى الشركة بالجاه وإن لم يكن الجاهان متساويين ، ومثل : شركة الأبدان فى السعى والعمل .. وغيرها ، فهؤلاء شركاء لله فى أى شيىء ؟! فى صفاته ؟ لا يكون فهناك فرق بين الخالق والمخلوق ، وكيف يشتركون معه وهو الأول فليس قبله شيء ، وهو الآخر فليس بعده شيء،وهو الظاهر فليس فوقه شيء،وهو الباطن فليس دونه شيء،وهو الخالق البارىء المصور صاحب الصفات والأسماء والكمالات ، وأين هؤلاء الشركاء من الله سبحانه وتعالى ؟ هل هم شركاؤه فى الخلق ؟ وقد سبق فى هذه السورة : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾هم لم يخلقوا شيئاً : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل:٢٠]﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونه آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾[الفرقان:٣] فمن أين جاءت الشركة ؟ وهم لا يملكون شيئاً : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣ ، ١٤] .

فهؤلاء هم الشركاء المزعومون : ﴿ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ وهذا تحدٍ لهم أن يسمّوا هؤلاء الشركاء المزعومين ، من هم وما هى أسماؤهم ؟ إنهم أحقر من أن يسمّوا ، كما يقول الإمام الرازى : كأن يقول الإنسان لمن يستحقره : من هو الذى تقول هذا ؟ سمّه لى ؟ لأبيّن زيفه ، ولأبيّن عطله وحقارته ، فهو أحقر وأتفه من أن يسمى ، فهؤلاء الشركاء ليس لهم أسماء ، ولو ذكرتم لهم أسماء ، فهى أسماء بدون مسميات ، وليس وراءها مدلول ولا

مسمَّى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] .

ولله تعالى أسماء سمّاها الأسماء الحسنى : ﴿ وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . مثل ما ذكر فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ ، ٢٤] فهذه من أسماء الله الحسنى ، وإذا كانت الأسماء تعنى الصفات ، فاذكروا لنا أسماء هؤلاء أى صفاتهم ، ماذا عندهم من صفات ؟ .

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ ﴾ تخبرونه بما لا يعلم فى الأرض ، بما لا حقيقة له ولا وجود له ، فلو كان موجوداً لعُلم ،ولعلمه الله تبارك وتعالى الذى ﴿ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٥] ، وما دام الله لا يعلمه فلا وجود له ، ومعنى هذا أنكم تخبرون بشىء لا حقيقة له ، ولا وجود ، فهو من الأوهام ، وإذن فأنتم تعبدون الأوهام وتتخذون شركاء من الأوهام .

﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ مجرد قول مزوّق ظاهر لا حقيقة له ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤] مجرد كلام باللسان لا ينبىء عن واقع ، وهذا كما قال بعض المفسرين : تسمّى الشىء بضدّه .

معنى التزيين للكفار وصدهم عن السبيل :

ثم أضرب القرآن عن هذا كله وقال : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ فالأمر لا يستحق مناقشة ، وهو أبطل من أن يتكلم فيه مع هؤلاء الناس ، وغاية الأمر أنهم زيّن لهم مكرهم أى كفرهم الذى لبّس عليهم وخدعوا عن حقيقته ، أو مكرهم : كيدهم للإسلام وأهله ولدعوته ولرسوله ولمن آمن معه .

﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ زيّن لهم مكرهم فرأوا الكفر حسناً : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] وهذه مشكلة كثير من الكفّار

للأسف : أنهم زيّن لهم الباطل فلم يعرفوه باطلاً : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] وهو شأن كثير من الكفّار الذين يتشدقون بكفرهم وباطلهم ، صُرِفُوا ومُنعوا عن سبيل الله وسبيل الحق ، والسبيل هو الطريق السهل الواضح المسلوك ، ولفظة السبيل تذكّر وتؤنث قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] وقال : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى .. ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدّوا عن الطريق الموصّل إلى الحق وإلى رضوان الله تبارك وتعالى ، فالسبيل تستعمل للطريق الحسى ، وتستعمل أيضًا للطريق المعنوى ، وإذا أطلق السبيل – كما هو معنا الآن – خصوصًا بعد الإضلال أو الصدّ كان معناه سبيل الحق ، وسبيل الله ، وسبيل الهداية الذى جاء به النبيّون ، وأنزل الله به الكتب ، وهو المنهج الذى أنزل الله تعالى به كتبه ، وبعث به رسله ، ليبيّنوا للناس العقائد السليمة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، حتى يميزوا بين الصواب والخطأ فى الأفكار ، وبين الحق والباطل فى المعتقدات ، وبين الصالح والفاسد فى الأعمال . وهكذا قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] وقال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] فهذا السبيل هناك من هُدِى إليه ، وهناك من أضل عنه وصُدّ عنه ، كما قال الله تعالى فى شأن فرعون : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٧] .

من المزين والصاد للمشركين : الشيطان أم النفس أم الله ؟ :

ولكن من المزيّن ومن الصّادّ؟ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ فمن الذى زيّن لهم هذا المكر ؟ ومن الذى صدهم عن السبيل ؟ ذكر القرآن الكريم فى آيات أخرى أن الذى زيّن لهم كفرهم وضلالهم وصدّهم عن السبيل أو الصراط المستقيم هو الشيطان كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] ، أى هؤلاء الشياطين الذين أصبحوا قرناء للذين عشوا عن ذكر الله يصدُّونهم عن السبيل : وكذلك قال

تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [فصلت : ٢٥] فهؤلاء الشياطين من الجنّ والإنس ، وكلاهما يزيّن السوء ويصدّ عن السبيل ، وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّنْ مَّسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] وعلى لسان الهدهد في سورة النمل قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ من دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٤] فالمُزيّن إذن للباطل والصادّ عن سبيل الله هو الشيطان .

وقد أجمل القرآن مهمة الشيطان في أمرين أساسيين : التزين ، والإغواء ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩] فمهمته أن يزيّن ويغوى .

وقد يذكر القرآن في بعض الأحيان التزيين منسوبًا إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : ٤] وهذا بالنظر إلى أن الأسباب كلّها ترجع في النهاية إلى مسببها ، وهو الله تبارك وتعالى ، وعلى ذلك يجوز نسبة الأمور كلّها إلى الله تعالى من هذه الزاوية .

والنفس أحيانًا تزيّن للإنسان أيضًا : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] وتسوّل له : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وهذا السامري يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه : ٩٦] فالنفس تزيّن وتطّوع وتسوّل ،وكذا يفعل الشيطان من الجنّ والإنس ، ويمكن أن ينسب هذا في النهاية إلى الله سبحانه وتعالى ، على معنى أنه هو الذي وضع هذه السنن ، وسبّب هذه الأسباب ، وخلق هذا الكون بمن فيه وما فيه ،وربط هذه الشبكة بعضها ببعض .

ما المقصود بـ (السبيل) ؟ :

وأيضًا إذا أطلق السبيل هكذا ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ فكأنه لا سبيل غيره وما عداه ليس طريقًا ؛ لأنه لا يوصل ، وإذا وصّل فسوف يوصل إلى جهنم

﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٩] والسبيل قد يعرف بالألف واللام ، فإذا اعتبرناها للعهد كان المعنى السبيل المعهود ، وإذا اعتبرناها للجنس فكأن هذا هو جنس السبيل ، وقد يعرف بالإضافة إلى لفظ الجلالة : الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الأنفال : ٤٧ ، التوبة : ٣٤ ، الحج : ٢٥] ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾[الأنعام:١١٦] باعتبار أن غاية هذه السبيل أن توصل إلى الله وإلى رضوانه ، ولأن واضع هذه السبيل وشارعها هو الله أيضاً ، فهى تنسب إلى شارعها مثل الصراط : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] وقد يضاف السبيل إلى الدَّاعى إليه وهو رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] فهو سبيل محمد ﷺ وطريقه الذى يدعو إليه كما فى الصراط أيضاً : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقد ينسب السبيل إلى سالكيه من المؤمنين : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾[النساء : ١١٥] ويقابلها سبيل للمجرمين ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] وسبيل المفسدين كما قال موسى لأخيه هارون ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فسبيل المؤمنين يقابلها سبيل المجرمين ، وسبيل المفسدين، وسبيل المؤمنين هى سبيل من أناب إلى الله ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان : ١٥] وهى سبيل رسول الله ﷺ،وهى سبيل الله ، وهى السبيل بإطلاق ، وكذلك فى الصراط أيضاً ينسب إلى سالكيه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ من أضلّه الله وصدّه وأعماه وخلّى بينه وبين نفسه ، وولاه ما تولى ، وتركه سادراً فى ضلاله بعد أن أقام عليه الحجة ، ووضح له المحجة ، وأنزل عليه الكتاب ، وبعث له الرسول ، وأقام من الأدلة ما يقطع معه كل تعلّة ، فلا هادى له ، ليس له هاد يهديه : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ

بَعْد الله ﴾ ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، لا أحد يهديه ، وكما قال الله عز وجل : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] .

الفرق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء لم يخلقوا كخلقه ،وليس لهم ذرة فى ملكه ، فليس لله تعالى شريك فى الملك ، هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً ، وزُيّن لهم مكرهم وباطلهم، وساروا فى هذا الطريق الأعوج ، لهم عذاب فى الحياة الدنيا بما كسبت أيديهم ، فإن الله سبحانه وتعالى يعجل بعض العذاب فى الدنيا لأهل الكفر والضلال تذكيراً لهم عسى أن يرجعوا إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ، فهو ينزل بهم بعض الآلام والمصائب فى أنفسهم وفى أهليهم وفيمن يحبون ، وقد يكون ذلك بالمجاعات ، كما قال الله فى شأن بعض الأقوام : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ، وقد يكون بالقوارع تنزل بهم ، أو تحل قريباً من دارهم كما مرّ بنا فى الآيات السابقة من السورة ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ فالله ينبههم ويذكرهم بهذه القوارع وهذه المصائب تتوالى عليهم، عسى أن يستيقظ النائم ، ويتنبه الغافل ، ويتذكّر النّاسى ، ويتوب العاصى ، ويهتدى الضال .

وقد بينت الآية الكريمة أن لهم عذابين : فى الحياة الدنيا وفى الآخرة : وعذاب الحياة الدنيا يكون على قدر ضلالهم وأعمالهم ، وليت الأمر ينتهى عند عذاب الدنيا ، ولكنّ هناك عذاباً فى الآخرة ينتظرهم ، ادخره الله لهم ، وهو أشدّ وأخزى ، وأشق وأصعب ، وأكثر إيلاماً وإيجاعاً من عذاب هذه الدنيا ؛ لأن

عذاب الدنيا لا يدوم ، فمهما طال أمده فسوف ينتهى ، وهو محدود من ناحية نوعه على قدر الدنيا ، ولكنّ عذاب الآخرة أشدّ من حيث الكم ، وأخزى من حيث الكيف ، قال رسول الله ﷺ : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة » ، قالوا : يا رسول الله إن كانت هذه لكافية ، قال : فإن نار الآخرة أشدّ منها بسبعين درجة »(١) .

وعذاب الآخرة أخزى ، لأنه لا يشمل الجسم فقط ولكن يشمل النفس أيضًا ، فهو عذاب مادى ومعنـــوى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : ١٩٢] .

ومن ناحية أخرى فإن عذاب الآخرة عذاب دائم ملازم ولذلك كان من أدعية عباد الرحمن : ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] ملازمًا دائمًا ، وهذه مصيبة كبرى ، فهو ليس يومًا ولا يومين وليس سنة ولا سنتين : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] إنه أبد الآبدين ودهر الدّاهرين ، ولذا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ ليس لهم من يقيهم أو يحميهم من عذاب الله عزّ وجلَّ ، وإذا كانوا يتصورون أن آلهتهم المزعومة تمنعهم من الله عز وجل ، فقد خدعوا أنفسهم ، فهذه الآلهة لا تملك شيئًا ولا تشفع لهم ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والشفاعة عنده لا تكون إلا لمن ارتضى أى لأهل التوحيد ، وإذن فاتكالهم على هذه الآلهة اتكال باطـــل : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥]، ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا *

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى باب كتاب بدء الخلق صفة النار وأنها مخلوقة ، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ناركم جـزء من ســبعين جزءاً من نار جهنم قيل يا رسول الله : إن كانت لكافية قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها ، ورواه الترمذى أيضًا فى كتاب جهنم ص ٧ ، وابن ماجة فى الزهد ص ٣٨ والدارمى فى الرقاق ص ١٢٠ ومالك فى الموطأ فى جهنم ص ١ .

كَلاَّ ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] ولن يشفع لهم الكبراء والسادة الذين مشوا فى ركابهم ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٦ ،١٦٧]ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم كما حكى الله عنهم :﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[سبأ:٣٥] وكذبوا فالله تعالى يقول : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الممتحنة:٣] ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُون * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] ، ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [سبأ : ٣٧] .

لا قيمة لأموال ولا لأولاد ، ولا تنفع أصحابها يوم القيامة ، وإذن فليس لهم من دون الله من واق .

ثم بعد أن ذكر القرآن هذه الصفحة المعتمة، ذكر الصفحة الأخرى لأهل الإيمان والتقوى قال : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ،وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ المثل يراد به التشبيه كما يقول عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مَائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : ٢٦١] وكما يقول : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ [البقرة:٢٦٥] وفى الحديث : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كرجل بنى بيتا .. إلخ » (١) ، وأحيانًا يراد بكلمة المثل تلك الجملة الغريبة السائرة من الأمثال بين الناس ، وقد ألّفت فى ذلك كتب ، وأحيانًا أخرى تطلق كلمة المثل ويراد بها الصفة الغريبة، فهومعنى مجازى ، فالمثل لغرابته يضرب للناس .

---

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى تحمل نفس المقدمة ورواها البخارى فى المناقب ومسلم فى الفضائل والإمام أحمد فى المسند ج ٢ والترمذى فى الأدب وفى المناقب ، وفى لفظ للبخارى فى باب خاتم النبيين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه .. إلخ » .

وهنا : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى الصفة العجيبة لهذه الجنة التى وعدها الله المتقـــين : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] والمتّقون هم الذين اتّقوا الشرك وآمنوا بالله وتنزهوا عن اتخاذ شركاء مع الله سبحانه وتعالى ، ودخلوا فى التوحيد ، وهم أيضًا الذين اتّقوا المعاصى ، ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ هذه من المصطلحات القرآنية أيضًا كما ذكرنا عن الذين آمنوا ، وعن الذين كفروا ، والذين اتّقوا هم أهل التقوى الذين اتّقوا الشرك ، واتَّقُوا ما يجلبه الشرك وما يثمره من الفسوق والعصيان والظلم ، والبغى بغير الحق ، إلى آخر ما يثمره .

فهؤلاء هم المتّقون الذين اتّقوا وجعلوا بينهم وبين الكفر والمعاصى وقاية ، فهم متّقون حذرون ؛ لأن التقوى نوع من الاجتناب مع الحذر ، فيقال : اتّقى الشىء أى اجتنبه مع حذر كما سأل سيدُنا عمر أبّى بن كعب رضى الله عنهما عن التقوى فقال : أما سرت فى طريق ذى شوك ؟ قال : بلى ، قال أبّى : فماذا صنعت ؟ قال عمر : تشمرت وحذرت ، قال أبّى : فذلك هو التقوى ، تشمر وحذر .

والتقوى لا تعنى أن المتّقين لا يقعون فى معصية أو مخالفة قط ، فليسوا ملائكة ، ويمكن أن يغرهم الشيطان ويوسوس لهم ، ولكنهم سرعان ما يرجعون كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠١] ، ولو فرض أن قدم التقىّ زلّت ووقع فى المعصية ، فإنه لا يستمر ، إذ سرعان ما يستيقظ ضميره المؤمن ، فيرجع إلى الله يقرع بابه بالتوبة والاستغفار ، ولذلك حينما قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران : ١٣٣] أتبع ذلك بوصف دقيق للمتّقين فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤ ، ١٣٥] وواضح

أنهم فى هذا الوصف يمكن أن يفعلوا الفاحشة أو يظلموا أنفسهم ، ولكنهم إذا فعلوا ذلك ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ولم يصرّوا على ما فعلوا ، فليس من شأنهم الإصرار ولذا استحقوا أن يعدّ الله لهم الجنة .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ بعض المفسرين يقول : إن الخبر هنا محذوف والتقدير ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى فيما يتلى عليكم وهم يفهم من السياق ، وبعضهم يقول : إن جملة ﴿ تَجْرِى من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ هى الخبر وتقدّر « أن » قبلها فيكون السياق ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى .. أَنَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ﴾ وهذا كما فى المثل العربى « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » أى « أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ، فصفة الجنة أن تجرى من تحتها الأنهار .

والقرآن كتاب عربى ، والماء عند العرب له أهمية ، ولا معنى للحياة ولا لذة لها إذا لم يكن الماء موجوداً وبكثرة ،ولذلك جاءت صفة الجنة أن الأنهار تجرى من تحتها وفى سورة الرحمن جاء فى وصف الجنتين : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن : ٥٠] وجاء أيضاً: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٦] ، والظل كذلك من الأشياء المهمة ولهذا نقرأ فى القرآن : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : ٤١] ، ومعنا : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ فالرى فيها متوفر ،وكذلك الظل فيها ظليل ، وليست مهمة الأنهار الرى فقط ،ولكن مشهدها والماء يجرى فيها يثلج الصدور ويشرح النفوس ، والشاعر يقول :

ثلاثة فى الناس يذهبن الحَزَن الماء والخضرة والوجه الحسن

والناس يحاولون الآن إنشاء برك صناعية لما للماء ومشهده من روعة وتأثير ، فكيف إذا كانت أنهاراً تجرى وليست نهراً واحداً ؟ .

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ الأُكُل : ما يؤكل فى الجنة من الطعام ، وخصوصاً الفاكهة : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٢ ، ٣٣] والفواكه لها مواسم ، فهل تكون كذلك فى الجنة ؟ لا .. بل كل صنف وكل

نوع وكل شيء رهن الإشارة والطلب ، وثمار الجنة دانية لا تتطلب جهداً ، بل تصل حالما يشتهيها الإنسان ، وهذا أسبق من تكنولوجيا العصر التى تجعل الأبواب تفتح لمجرد الاقتراب منها أو الماء ينزل من صنابيره بمجرد مدّ اليد ، ففى الجنة بمجرد الخاطر يأتى الشيء قريباً دانياً مذللاً ، ويبقى عمل التكنولوجيا والتطور العصرى فى تقريب ما يمكن أن يحدث فى الجنة إلى الأذهان ، وليس لثمار الجنة مواسم فإنها دائمة ، وفى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفى البخارى « أن رجلاً فى الجنة قال : يا رب أريد أن أزرع فقال الله : وما حاجتك إلى الزرع ؟ فقال يا رب : أريد أن أزرع ، فجاءته آلات الزراعة وما يحتاج إليه فيها فزرع وأثمر وحصد فى مدة قصيرة فقال الله عز وجل : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء (١) وكان أحد الأعراب جالساً عندما قصّ النبى ﷺ هذه القصّة عن أهل الجنة فقال الأعرابى : يا رسول الله إن هذا لا تجده إلا مهاجرياً أو أنصارياً فإنهم أهل زرع أما نحن فلسنا أهل زرع ٠

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ وظلّ الجنة ظلّ دائم لا يتقلص ، والظلّ يراد به ما ينتج عن أشعة الشمس ، ويراد به ما هو أعم من هذا ، وقد قالوا : إن الفيء مترتب على الشمس ، وليس من الضرورى أن يترتب الظلّ على الشمس ، بل يمكن أن يقال : ظلّ الليل ، وفى الجنة : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٣] فالقرآن يريد أن يُطمئن أهل الجنة خصوصاً فى البلاد الحارة أنهم لن يتعرضوا للضّحّ أو للضحْو،وهو إصابة حر الشمس قال تعالى لآدم : ﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ [طه : ١١٩] أى لا تتعرض للشمس المحرقة اللاذعة ، فهناك ظلّ ظليل : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[النساء: ٥٧] أى ظِلاًّ ثقيلاً ممدوداً : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٣٠] متسع منبسط ممتد ، وقد جاء فى الحديث

---

(١) الحديث فى البخارى فى التوحيد باب كلام الرب مع أهل الجنة ، وفى الحرث أيضاً عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأول الحديث : « أن النبى ﷺ كان يحدّث وعنده رجل من أهل البادية أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع ٠٠ » وآخره « فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك رسول الله » ٠

الصحيح : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلّها مائة عام ، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (١) ، فظّل الجنة إذن ظلّ دائم وظلّ ممدود وظلّ ظليل .

فهذه هى الجنة التى وعد المتقون أكلها دائم وظلّها ليس كالظل الذى عند الآخرين فى جهنم ، إنما سمّى الظلّ فى جهنم ظلاً من باب التهكّم ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] ، ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلاَثِ شُعَبٍ * لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات : ٣٠ ، ٣١] لا يمكن أن يكون هذا ظلاً ، وإنما هذا من التهكم ، وأين هذا من الظلّ البارد الكريم الدائم الظليل الممدود فى الجنة ؟! .

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ الجنة التى تقدم الكلام عنها هى مآل الذين اتقّوا الله ومصيرهم ومنتهى أمرهم ، أما الآخرون فمآلهم ومنتهاهم النار ، فهل يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ؟ ﴿ لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] هيهات أن يستويان ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ وبئس المصير للكافرين وبئس المهاد وبئس القرار جهنم أعاذنا الله منها .

* * *

---

(١) سبق تخريج الحديث والكلام عنه .

OBEIKAN.COM

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٣٦ - ٤٠] .

من هم الذين آتاهم الله الكتاب ؟ :

تتحدث السورة هنا عن موقف الذين آتاهم الله الكتاب من القرآن الكريم ، وقد سبق الكلام فى مقدمة التفسير : أن المهم لمن أراد أن يفقه القرآن ويفهم عنه فهمًا جيدًا : أن يستقرىء مواضع الجمل والألفاظ فى القرآن الكريم، وأن يستقرئ مواضع السياق والسباق ؛ ليستعين بذلك على فهم النص فهمًا حسنًا .

المراد بـ (الكتاب) ؟ :

وقد ذكرنا أن كلمة الكتاب فى القرآن ترد بمعانى عديدة منها – إذا أطلقت كلمة الكتاب – التوراة والإنجيل ، وقد يراد بالكتاب القرآن ، وقد يراد به اللوح المحفوظ الذى تكتب فيه مقادير الخلق ، وفى هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ينصرف الذهن ويتبادر إليه أن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هنا هم أهل التوراة والإنجيل ، وإن كان من المفسرين من قال : إن المراد بهم أهل القرآن فمعنى ﴿ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ، وإنما لم يقل : « آتيناهم القرآن » لأسباب بلاغية ، وهذا وارد،ولكن الذى يتبادر إلى الذهن من هذه العبارة ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ حيثما ذكرت فى القرآن الكريم أنهم هم الذين آتاهم الله التوراة أو الإنجيل من اليهود ومن النصارى .

ولعل من قال : إن المراد بالكتاب هو القرآن إنما قال ذلك لما رجحه كثير من أهل التفسير وعلوم القرآن من أن هذه السّورة مكية ، فكيف يراد بالكتاب – فى

مكة – التوراة والإنجيل ؟! ويؤكد هذا : آيات كثيرة من السور المكية ، ذكّرت أهل الكتاب وذكرت الذين آتاهم الله الكتاب،كما فى سورة الأنعام : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[البقرة :١٤٦] ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وفى سورة القصص وفى سورة العنكبوت وغيرها ذكر الله الذين آتاهم الكتاب ، وذكر الرجوع إلى أهل الكتاب : ﴿ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس : ٩٤] فالحديث عن أهل الكتاب شائع فى القرآن المكىّ ، وقد كان فى مكة أهل كتاب ، فلا عجب أن يتحدث عنهم القرآن .

وجاء عن بعض المفسرين أن المراد بالذين آتاهم الله الكتاب : هم الذين آمنوا منهم مثل : عبد الله بن سلام وأصحابه من بنى إسرائيل . ومثل : الذين أسلموا من النصارى وقيل : إنهم نحو ثمانين ، أربعون منهم من وفد نجران ، وثمانية من غيرهم ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وهذا على التسليم بأن السورة مدنية أو لعل هذه الآيات من السورة مدنية ، وهذا ليس بمستغرب : أن توجد آيات مدنية ضمن سورة مكية ، وتكون السورة مكية بحسب الغالب فيها ، وإن كنت أرجح أن السورة كلها مكية .

وعلى كل حال فعبارة ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وردت بيقين فى السور المكية .. ومن استقرأ هذه العبارة فى القرآن يجد أنها عبارة مدح وثناء لهؤلاء كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت : ٤٧] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص : ٥٢ : ٥٤] ، وأيضاً كما قال ابن القيم : فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُم

لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] هو من المدح أيضًا ، لأن الذين يكتمون الحق فريق منهم ، وإذن فقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يدل على المدح والثناء والتنويه بأهله .

وهذا على خلاف تعبير آخر يدل على الذّم وهو قوله : ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٢٣ ، النساء : ٤٤ ، ٥١] قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء :٥١] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء : ٤٤] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٣] فهذا يدل على الذمّ ؛ لأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب وضيعوا نصيبًا آخر ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] .

وهناك عبارتان تحتمل كلّ منهما المدح والذم ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، و ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ كما فى قوله تعالى فى مقام المدح : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] وقوله فى مقام الذم : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١] وقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٠] فهذه التعبيرات منها ما يحتمل المدح ومنها ما يحتمل الذم ، وكذلك ما ورد من تعبير : ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ كما فى قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٠١] وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤٤] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ [النساء : ١٣١] فهذه التعبيرات مما يحتمل المدح والذمّ ، والسياق هو الذى يحدد المعنى المراد .

وإذن فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ تعنى المدح حيثما وردت فى القرآن الكريم ؛وذلك لأن عندهم شيئًا من العلم ، فحينما نظروا فى القرآن

المنزل على محمد ﷺ ، وجدوا فيه من الآيات الدالة على صدقه ، وأنه منزل من عند الله عزّ وجلّ ، فلذلك فرحوا بهذا الكتاب ، وخصوصاً أنه يصدّق ما بين يديه من الكتب الأخرى ، ولأنه جاء بالأصول التى جاءت بها النبوّات : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

المراد بالأحزاب هنا :

﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهناك بعض الأحزاب ممن ينكر بعض ما أنزل إلى محمد ﷺ من القرآن ، وهم إما من أهل الشرك من الوثنيين ، وهذا شائع أيضاً فى القرآن الكريم ، وكلمة الأحزاب بهذا الجمع والتعريف تذكر في القرآن فى موضع الذّم ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾[سورة ص:١١] ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [غافر : ٥] ، ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةَ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ [سورة ص : ١٣] ، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ،وإما أن يراد بالأحزاب أهل الكتاب : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] والحديث هنا عن عيسى عليه السلام ، والغالب أن يكون تحزبهم على الكفر والضلال سواء كانوا من المشركين أم من أهل الكتاب وفرقهم الضالة، وهناك فرق ضالة كثيرة من اليهود والنصارى ، كما أن هناك طوائف ضالة من المشركين .

أخذ بعض القرآن دون بعض :

وأى بعض من القرآن أنكره الأحزاب ؟ ، لم يحدد القرآن هذا ،والمهم أنهم ذُمُّوا ؛ لأنهم لم يأخذوا هذا القرآن جملة ، وهو كلٌّ لا يتجزأ ، ولا يجوز أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، وقد حذّر الله رسوله ﷺ منهم فقال : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] فلا يجوز إذن تجزئة هذا الكتاب ، ولا يجوز أن يقطّع لحماً على وضم ، فتؤخذ العقائد وتترك الأخلاق ، أو تؤخذ العبادات وتترك المعاملات ، وتؤخذ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾[البقرة:١٨٣] ولا تؤخذ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة : ٢١٦] أو لا تؤخذ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى

الْقَتْلَى ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، بل لابد أن يؤخذ كله ، وإلا كنا كبنى إسرائيل الذين وبخّهم الله تعالى وقرعهم أشد التقريع حينما قال لهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْىٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [البقرة : ٨٥] وهم أيضًا – اليهود – الذين أرادوا أن يدخلوا فى الإسلام وأن يستبقوا تعظيم يوم السبت من شرائعهم القديمة ، فأبى الرسول ﷺ عليهم وأبى القرآن عليهم ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] أى ادخلوا فى شرائع الإسلام كافة فالمراد بالسلم هنا الإسلام .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ لماذا تترددون فى قبول الإسلام كله ؟ ولماذا تريدون أن تقبلوا بعضًا وترفضوا بعضًا ؟ وإنما أمرت بما أمر به النبيُّون والرسل جميعًا أن أعبد الله ولا أشرك به ، فقد جئنا وأمرنا بالتوحيد الذى أنزل الله تعالى به جميع كتبه وبعث به جميع رسله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ،وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ يدل على أنه عليه الصلاة والسلام عبد مأمور ، وأن هذا القرآن أتاه من جهة أعلى منه، وأنه ليس من كلامه بل هو من كلام ربه يُلقّنه ويلقّاه ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[النمل: ٦] .

﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ لا أدعو إلى نفسى ولا أدعو إلى عبادة بشر ولا إلى عبادة حجر ، وتقديم (إليه) كما سبق أن قلنا : إن علماء البلاغة قالوا : إنه يفيد الاختصاص والقصر أى إليه لا إلى أحد غيره ، إنما أدعو إلى الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، وأدعو إلى سبيله وإلى دينه وإلى شرعه .

﴿ وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ إليه مرجعى ومصيرى لا إلى غيره ،ولا يتحكم فى مصيرى ومآبى أحد إلا الله ، فالرجوع سوف يكون إلى الله ، فهو الملك وحده ، والحاكم وحده ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالأَمْرُ يُومَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩] ، ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ،

وتتضح هنا ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ القضيتان الأساسيتان ، قضية المبدأ وقضية المصير ، فالمبدأ من الله والمصير إلى الله عزّ وجلّ ، وأهم عقيدتين فى عقائد الديانات السماوية هما عقيدة التوحيد وعقيدة الجزاء .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ الضمير في أنزلناه يرجع إلى القرآن الكريم،والخطاب لرسول الله ﷺ،وكلمة الحكم﴿ حُكْمًا ﴾تعنى القضاء والفصل أى قضاء وفصلاً ، أو تعنى الحكمة ، وهى ترد فى القرآن بالمعنيين : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة : ٥٠] بمعنى القضاء والفصل ، وترد بمعنى الحكمة : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ ﴾[آل عمران : ٧٩] ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص:١٤] فالحكم هنا بمعنى الحكمة،والقرآن يشتمل على الأمرين على الحكم بمعنى القضاء الفاصل بين الناس والتشريع الحاكم والأوامر الحاكمة ، ويشتمل على الحكمة أيضاً،فإذا قلنا فى قوله:﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾: إن (الحكم) بمعنى الأمر والتشريع ، أو بمعنى الحكمة الهادية للناس التى تضع كل شيء فى موضعه ، فالمعنى صحيح على الوجهين ؛ لأنه كتاب يحكم : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾[النساء:١٠٥]؛ ولأنه كتاب حكيم أيضاً ومنزل من حكيم : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:٥٨]،﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[يونس : ١] .

عربية القرآن وحكم ترجمته إلى اللغات الأخرى :

وقوله : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى مترجما بلسان العرب ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يشرف هذا اللسان بأن ينزل به خير كتبه ، وآخر كلماته الهادية للبشر ، فأنزل القرآن الكريم بهذه اللغة الشريفة التى شرفها القرآن تكريمًا للرسول ﷺ وتكريمًا لهذه الأمة كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[الزخرف : ٤٤] ، وكما قال أيضاً : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾[الأنبياء : ١٠] أى فيه شرفكم وفخركم وتذكرون به بين الأمم ، وأيضاً فقد أنزله الله بلسان عربى مبين ؛ لكى يفهمه الرسول ﷺ ولكى يفهمه قومه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[إبراهيم : ٤] ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

بلسَانكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ : ١٩٥] .

ومن هنا كانت عربية القرآن أمراً مؤكداً ،وقد جاء فى عدد من السور تأكيد هذا الأمر : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت : ٣ ، ٤] إلى آخر ما ورد فى كتاب الله عز وجل مؤكداً عروبة هذا الكتاب « القرآن الكريم » .

ومن هنا أيضاً تكون الترجمات التى تترجم لمعانى القرآن أو لتفسير القرآن ليست هى القرآن ولا تسمّى قرآناً ، فالقرآن هو اللفظ العربى المنزل على محمد ﷺ ، والمحفوظ فى الصدور ، والمتلو بالألسنة ، والمكتوب فى المصاحف بين دفّتيها ، وقد اختلف العلماء فى قضية ترجمته اختلافاً كثيراً ، وكانت معركة كبيرة منذ نحو سبعين عاماً فى مصر بين العلماء الذين يجيزون الترجمة وبين الذين لا يجيزون ، وانتهت إلى إجازة ترجمة معانى القرآن الكريم ، وحتى ترجمة المعانى هذه لا يجيزها بعض الناس ويطالب بترجمة التفسير فقط ، والحقيقة أن ترجمة روائع اللغات عملية فى منتهى الصعوبة ،فالذى يترجم الروائع يحتاج إلى أن يكون فى مستوى ما يترجمه ، فمثلا من يترجم لشكسبير ينبغى أن يكون عنده من المستوى الأدبى ما يستطيع أن يترجم به لشكسبير ، إضافة إلى علمه باللغة الإنجليزية التى يترجم منها وعلمه ومعرفته باللغة التى سوف يترجم إليها وأن يكون عنده من القدرة على الإبداع الأدبى والفنى ما يستطيع أن ينقل به رائعة من روائع شكسبير دون أن يفقدها روحها ومعناها ، هذا مع النصوص البشرية فكيف بالنصوص الإلّهية ؟! كيف يستطيع أحد أن ينقل نَصًّا من القرآن الكريم بما فيه من إعجاز ؟ لا يستطيع أحد أن يفعل هذا مع القرآن ، ولا حتى مع النصوص الأدبية كما قال بعضهم ومثّل لذلك بما قاله امرؤ القيس :

« مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معًا »

فكيف تترجم هذه بما هى عليه من نظم ووجازة ؟ يمكن أن تترجم معانيها فى عدة أسطر ولن تكون بتلك الروعة .

ثم إن القرآن ألفاظ ومعانى ، واللفظ الواحد يحتمل – أحيانًا – عدة معانى ، وهذه المعانى التى يؤدّيها اللفظ لها دلالات ،مثل قوله : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] فالباء فيه تفيد الإلصاق ، وتفيد التبعيض ، وغير ذلك ، فكيف يترجم هذا ويؤدى الأداء القرآنى ؟! .

وأمر آخر فى القرآن وهو اللّحن والموسيقى كما يسمونها ، كيف يترجم لها ؟ ، وكيف يفرق بين سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن مثلاً فى الترجمة ؟ وكل سورة من هذه السور لها نسق ولها جوّ ولها موسيقى ، وكيف يحافظ على جو كل سورة ونسقها ؟ ففى سورة النجم الألف المقصورة : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النحم : ١ : ٣] ، وفى سورة الطور فاصلة تميزها : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [الطور: ١ : ٤] ، وكذا فى سورة الرحمن : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ : ٤] ، كيف يحافظ إذن لكل سورة على موسيقاها ووقعها على الأنفس ؟ .

لاشك أن اختيار نظم معين له حكمة معينة ، وإلا فلماذا كانت : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على طريقتها هذه وليست على طريقة غيرها ؟ لابد أن هناك حكمة وراء هذا ، فالمخاطب هنا مثنى﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن] ، وإذن فادّعاء ترجمة القرآن هذه عملية غير مسلّمة ، أما محاولات ترجمة المعانى أو التفسير لتقريب القرآن إلى الأذهان بقدر الطاقة البشرية فلا بأس بها .

والمفسرون حين يتكلمون عن التفسير يقولون : هو بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية ، وهذا فى التفسير الذى يحمل نفس لغة القرآن ، ومع ذلك تختلف فيه الطاقة البشرية ، وتبقى فيه مساحة للظنّ ، أيصل إلى المراد أو يقاربه أم لا ؟ فهل إذن لا تعدو كونها محاولات .

وقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يكون القــرآن عربيًّا بلسان الرسول ﷺ ، وبلسان أمته التى تتلقى عنه ، والمكلفة بأن تحمل الإسلام إلى العالم ، تفهمه هى وتتذوقه وتتمثله ، ويصبح جزءاً من كيانها العقلى والنفسى والروحى ، وبعد ذلك تترجم هذه الأمة العالم إليه . وقد كان هذا عملهم رضوان الله عليهم أن يترجموا العالم إلى القرآن لا أن يترجموا القرآن إلى العالم ، أن يعربّوا العالم ، لا أن يعجّموا القرآن ،وهذا ما دأب عليه الصحابة الفاتحون ومن تبعهم بإحسان : أن ينشروا العربية مع الدين ، فينتشر الإسلام وتنتشر العربية معه ، ويدخل الناس فى دين الله ، ويدخلون في لغة العــرب ، ولولا هذا ما كنا نحن عربًا، فقد عرّبنا الإسلام فى مصر وفى شمال أفريقيا وفى مناطق أخرى ، فاستعربنا ، والاستعراب أصيل عند العرب ، حتى إن أفضل العرب وهم العرب العدنانيون من عرب الشمال الذين منهم رسول الله ﷺ يسمونهم المستعربين أو العرب المستعربة ، وهم يختلفون عن عرب الجنوب القحطانيين فى اليمن ، ومن أجل ذلك كانت الحكمة فى أن يجعل الله القرآن عربيًّا ، وإلا لكان الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِلَتْ آيَاتُهُ ، أَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت : ٤٤] فيكون الكتاب أعجميًا والرسول عربى ، ولكن الأمر كما أراد الله أن يكون الرسول عربيًّا وأن يكون الكتاب عربيًّا ، بلسان القوم الذين نزل فيهم .

اتباع الهدى لا اتباع الهوى :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَوَاقٍ ﴾ لئن اتبعت أهواء هؤلاء وسرت وراء ما يطلبون فهنا يكون الهلاك والخسار ؛ لأن أهواء البشر ليس وراءها إلا الضلال إذا لم يسندها هدى من الله عز وجــل : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَــــدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنِ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون:٧١] ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَـوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ [القصص:٥٠]،﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [سورة ص: ٢٦] فأهواء البشر لا تتبع ، وهى متناقضة ، فكل واحد له هوى معين يتبع مصلحته الخاصة ، فأى هوى تتبع ؟ هوى أهل اليمين أم هوى أهل اليسار ، هوى الأغنياء

أم هوى الفقراء ؟ الهوى لا يتبع ، لذا كان التحذير من اتّباع الهوى لداود : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] ، وللرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] فحذره من اتباع أهواء الآخرين : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ [الجاثية : ١٨ ، ١٩] ، ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٤٨] وهذا يدل على أن هؤلاء من أصحاب الهوى يكيدون ، ولا يريدون اتباع الحق ، بل يريدون أن يجرفوا الناس ويضلوهم عن السير فى ركاب الحق ، فلابد من الحذر منهم .

وإذا كان هذا تحذيرًا لرسول الله ﷺ وهو من هو ، فأولى بنا أن نحذر ونحذر ونحذر ، والكلام يحمل نوعًا من التهديد : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ علم الوحى الذى أنار لك الطريق ، ووضح لك المعالم ، وأقام الحجة وقطع العذر : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ .

﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ هذا جواب الشرط ، والعلماء يقولون : إذا جاء الشرط والقسم ، إذ اللام فى « لئن » موطئة للقسم والقسم مقدّر نقديره « والله لئن اتبعت أهواءهم » فتحذف الفاء من جوابه ﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ ولو كانت إن الشرطية فقط لقال : « فما لك من الله » ولكن الفاء حذفت من جواب الشرط ، ولأن الجملة ﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ وقعت جوابًا للشرط وللقسم فلا يوقف عليها قراءة ؛ لأن المعنى لم يتم والجملة لم تنته ، أو أنها وقعت جوابًا للقسم وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط .

وقد جاءت هذه العبارة ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى آيات كثيرة فى القرآن ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] ، وغير ذلك مما يحمل

التحذير من اتباع أهواء هؤلاء ، ولئن فعلت ذلك ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يلى أمرك وينصرك : ﴿ وَلا وَاقٍ ﴾ يقيك ويحميك ويدفع عنك بأس الله عزّ وجلّ ، وهذا ومثله كما قال الإمام الزمخشرى : من باب « إيّاك أعنى واسمعى يا جارة » فالخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ولكن المقصود به نحن ، فالرسول لا يخشى عليه أن يتبع أهواء هؤلاء ، ولكنه يخاطب بمثل هذا الخطاب ؛ ليكون تحريضاً للمؤمنين وتهييجاً لهم على الحذر من اتباع أهواء الضالين والمضلين ، وقطعاً لأطماع هؤلاء المؤمنين ؛ لأنه إذا كان الرسول يقال له هذا ، فما بالكم أنتم ؟ فحينئذ لا يوجد من المؤمنين من لا يخاف على نفسه ، وهذا يرد فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٧ ، الأنعام: ١١٤ ، يونس : ٩٤] ، ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص : ٨٧] ، ﴿ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ ﴾ [القصص : ٨٦] ، وهو يحمل التحريض للمؤمنين والتنبيه ليكونوا أبداً على حذر .

بشرية الرسل ومالهم من أزواج وذرية :

ثم قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴾ مشكلة قديمة ذكرها القرآن فى مواضع كثيرة من قصص الرسل ، وهى أن من الناس من يستبعد أن يكون الرسول بشراً ، مع أن هذا هو الموافق للحكمة ؛ إذ كيف يبعث الله تعالى للبشر رسولاً من غير البشر ؟ ولو حدث فكيف يأخذون عنه ؟ وكيف يتعلمون منه ؟ وكيف يقتدون به ؟وكيف يكون لهم أسوة ؟ وكيف يقيم الله عليهم الحجة إذا أرسل إليهم ملكاً لا يأكل الطعام ولا يتزوج ولا يحتاج إلى مثل ما يحتاجون إليه ؟! ..

الحكمة اقتضت أن يبعث الله للبشر رسولاً من جنسهم من أنفسهم ولذلك يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٥] إذا كان الذين يسكنون

الأرض ويقيمون فيها ملائكة لنزلنا إليهم ملائكة من جنسهم ، لكن والحال أن البشر هم الذين يسكنون الأرض ويقيمون فيها ويمشون مطمئنين ، فالمعقول أن يكون الرسول من جنسهم ، ومع هذا وجد من يقول من الناس للرسل : ﴿ إِنَّ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠] ، ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا ﴾ [هود : ٢٧] ، وقالوا أيضاً:﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان:٧] ، وهذا إلى جانب ما أخذوه على الرسول ﷺ أن له أزواجاً وذرية – هذا إذا اعتبرنا هذا القرآن مدنياً . أما إن كان مكياً فهى زوجة واحدة وهى السيدة خديجة رضى الله عنها – ولعلهم كانوا يريدونه كالحصور يحيى عليه السلام ، أو كالمسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام لا زوجة له ، ولكن كم من رسل الله عليهم السلام كانت لهم أزواج ، وكانت لهم ذرية ، بل كل الرسل كانوا كذلك عدا يحيى وعيسى ، ومنهم من كانت له مئات الزوجات كما ذكر فى التوراة أن سليمان كان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة أمة ، وداود كانت له مائة زوجة حرة ومائتان من الإماء ، وهذا لأنهم بشر،وقد ركّب الله فى البشر تلك الغريزة ؛ لأن من ورائها بقاء نوع البشر واستمراره ، ومنهم من لم يكن له ولد ، فطلب الأولاد من الله عزّ وجلّ ، كما فعل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات : ١٠٠ ، ١٠١] وكما طلب زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : ٣٨] ، وأيضاً : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾[مريم : ٥ ، ٦] إلى آخر هذا ، وقد أعطاهم الله الولد ، فلست بدعاً من الرسل أن يكون لك زوج أو أكثر من زوج ، وكلمة زوج – كما قلنا من قبل – كما تكون للرجال تكون للنساء ، فالرجل زوج والمرأة زوج ،وأن يكون لك ذرية فأنت على سنة الرسل تسير ، وهذا ليس مما يعيبك ، بل لتكون قدوة للناس فى حالة الزوجية وفى حالة الأبوة يتأسى بك الزوج فى معاملة زوجته ،ويتأسى بك الأب فى معاملة أولاده ، ويتأسى بك الجدّ فى معاملة أحفاده ، فهذا مما يوافق الحكمة الإلهية بأن جعلك من أصحاب الأزواج والذرية .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ يردّ الله تعالى فى هذه الفقرة

على اقتراحات الذين كفروا بإنزال آيات وغير ذلك فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأتِى بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أتظنون أن الرسول أى رسول يستطيع أن يجيب إلى ما طلب منه من قوم كلما شاءوا شيئًا صنعه ؟ ، الرسول هذا بشر من البشر مبعوث من الله لا يستطيع أن يفعل شيئًا فى هذا الكون إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، فالكون كون الله وليس كون الرسول ، والله هو الفعال الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أى ما صح له ولا استقام وليس فى وسعه : ﴿ أَنْ يَأْتِى بِآيَةٍ ﴾ مما تقترحونه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى بمشيئة الله سبحانه وتعالى ومشيئته مرتبطة بحكمته ..

وسواء كانت هذه الآية التى تطلبونها آية حسيّة مثل الآيات التى جاء بها موسى من العصا واليد ،ومثل الآيات التى جاء بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغيرها ،ومثل آية صالح الناقة ، وغير ذلك ، أو كانت الآية التى تطلبونها آية تنزيلية من آيات القرآن تريدونها مكان آية ، أو تريدون حكمًا مكان حكم ، سواء كانت الآية كونية أم تنزيلية ، فلا يستطيع الرسول أن يأتى بها إلا بإذن الله ، وهذا ما قاله الرسل عامة لأقوامهم حينما طالبوهم أن يأتوا بسلطان مبين ، ومع أن الرسل قد جاء كل أحد منهم بآية ، إلا أن أقوامهم لا يكتفون بآية واحدة بل يريدون أخرى وأخرى وأخرى ، لأن المتعنت لا يقف عند حد ، قالت الرسل : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] فهذا موقف الرسل عامة : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِى بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

معنى (لكل أجل كتاب) :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ الأجل هو المدة المضروبة المحددة من الزمن المعروفة بدايتها ونهايتها مثل أجل الإنسان ، مدّته التى قدّر الله أن يعيشها فى عمره ، وكما جاء فى قصة سيدنا موسى مع الشيخ الكبير الذى يقال : إن اسمه شعيب ، قال الشيخ : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ